عوامل الازدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد بإشبيلية الأندلسية
(414- 484ه/ 1013-1091م)

د. عمار عبد الرحمن إسماعيل أمبدة
أستاذ الأدب والنقد المشارك – كلية اللغة العربية- جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية.

مستخلص:

تناولت هذه الدّراسة عوامل الازدهار الأدبي في دولة بني عبّاد الأشبيلية الأندلسية، وهدفت إلى التعريف بمكانة ملوك آل عبّاد بين ملوك الطّوائف الأخرى في الأندلس. وكيف كان موقف أسرة العبّاديين من معالم الحياة الثّقافية والأدبيّة بصفة عامة؟ وتشجيعهم للشّعر والشّعراء بصفة خاصة. ومن ثم التّعرف على الآثار المادية الحضاريّة التّي شيّدها حكّام العبّاديين في إشبيلية، وأثر ذلك على الشّعراء. واتبعت الدراسة المنهج الوصفي الاستقرائي. وخلصت الدّراسة إلى عددٍ من النّتائج أهمها: أن مملكة إشبيلية تعد من أهمَّ دول الطوائف كلها ، وأعظمها شاناً وأقواها عدة ، فقد علا فيها شأن العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ؛ وهذا ما جعل ملوكها أشهر الملوك ، وشعراءها أفحم الشعراء. لهذا توصي الدّارسة بمزيدٍ من الدّراسات حول عوامل الإزدهار الأدبي في دويلات الطّوائف الأندلسية الأخرى.

Abstract;

This study dealt with the factors of literary prosperity in the state of Beni Abbad of Seville, Andalusia, and aimed at revealing the status of the Abbad kings among the kings of other sects in Andalusia.And what was the attitude of the Al-Abadi family towards the cultural and literary life in general? And encourage them to poetry and poets in particular. And then enlight about the cultural monuments built by the Abbadite rulers in Seville, and thier impact on poets.The study followed the descriptive and inductive approach. The study concluded some important results among which were: The largest of them: that the Kingdom of Seville is one of the most important countries of all sects, the greatest of them in affair and the most powerful in number. This is what made its kings the most famous kings, and its poets the most famous poets. For this reason, the study recommends further studies on the factors of literary prosperity in the states of other Andalusian sects.

ISSN Online:1859-957X

مقدمة:

الحمد لله الموفِّق لكلِّ خير، والحاثّ على كل بر، والدّال على كل فضل وإحسان. والصلاة والسلام على قدوتنا وحبيبنا محمد(صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد:

لقد ازدهرت الحياة الثّقافية في الأندلس في عصر ملوك الطّوائف، وشجّع الحكّام الأدب والعلوم، وأولوا الحركة العلميّة والأدبيّة جلَّ عنايتهم، فكانوا سببًا من أسباب هذه النّهضة الثّقافية.

وكان بنو عبّاد من أشهر هؤلاء الحكّام الذين لا نستطيع إنكار فضلهم في هذا المجال؛ لصلتهم الوثيقة بشعراء عصرهم، وتقديمهم كل ما يحتاجونه من دعم مادي ومعنوي، ولهذا اجتمع أعلام الشّعر والأدب في بلاطهم، لينالوا نصيباً من ذلك العطاء الكبير، وليعبّروا عن تقديرهم ووفائهم لما كانوا يلقونه من حسن الرّعاية والاهتمام.وعلاوة على ذلك فقد كان أكثر حكّام بني عبّاد شعراء يحبون الشّعر ويقدّرونه ويؤمنون بأنه مقياس للكافاءة.

ولهذا نجد أنّه ليس من الغريب أن يتهافت الشّعراء على اختلاف طبقاتهم على بلاط بني عبّاد أيّام سلطانهم؛ فثمّة حاجات لديهم يسعون إلى تحقيقها والوصول إليها، فالذي يريد المال يجده، والذي يريد السّلطة يجد الوزارة وغيرها من المناصب.

ومن هنا كانت علاقة الشّعراء بحكّام بني عبّاد حتى بعد زوال ملكهم- خصوصاً الحاكم المعتمد بن عبّاد- حيث دأب بعضهم على التواصل معه وظلّ اعترافهم بفضله عليهم حتّى عندما كان مسلوب الحكم أسيراً لا حول له ولا قوّة، فبادروه بالوفاء وزاروه في أسره وشاطروه الألم والأسى على ما حلّ به.وبناءً على ما تقدّم ارتأى الباحث أن يقف على العوامل التي ساعدت على الازدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد بإشبيلية.

أهمية الموضوع: تأتي أهميّة هذا الموضوع أنَّه يقدِّم دارسة أدبية نقدية لعوامل الازدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد بإشبيلية الأندلسية، وأثر ذلك على الحركة العلميّة والثّقافية في الأندلس.

أسباب اختيار الموضوع: اختار الباحث هذا الموضوع لعدة أسباب منها:

1-إن بيئة الأدب الأندلسي تعد من أهم البيئات الأدبية للغة العربية التي حافظ الأندلسيون عليها في استعمالها والخضوع لقواعدها والانقياد لنظم بيانها وافتخار رجال الحكم والشعراء بكتابتها.

2- كثرة هجرة العلماء والأدباء إلى دولة بني عبّاد بإشبيلة.

ISSN Online:1859-957X

3- الطريقة التي تميز بها آل عبّاد على غيرهم من ملوك الطّوائف في جلب الأدباء إلى بلاطهم.

حدود الدّراسة:

1- حدود زمانية: فترة حكم بني عبّاد بإشبيلة (414- 484هـ/1013-1091م)

2- حدود مكانية: ما قيل من شعر في دولة بني عبّاد بإشبيلية بحدودها الجغرافية المعروفة.

منهج الدّراسة: اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي والاستقرائي.

هيكل الدّراسة: قسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة، وخاتمة، وقائمة للمصادر والمراجع، ثم خمسة محاور كالآتي: **المحور الأول:** التّعريف ببني عبّاد ودولتهم بإشبيلية الأندلسيّة. **المحور الثاني:** حُبّ أمراء بني عبّاد للأدب وتشجيعهم للشعر والشعراء. **المحور الثالث:** المجالس الأدبيّة، والمظاهر الحضاريّة. **المحور الرابع:** كثرة الشّعراء في بلاط بني عبّاد. **المحور الخامس:** أثر الطّبيعة السّاحرة على شعراء دولة بني عبّاد.

المحور الأول: التّعريف ببني عبّاد ودولتهم بإشبيلية

أولًا- نبذة عن مدينة إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس وقد دعاها المسلمون من جند الشام (حمص). تقع غربي مدينة غرناطة على نهر الوادي الكبير. اشتق اسمها من الاسم الفينيقي (hispalis) ويقال إن معناها الأرض المنبسطة. ازدهرت أشبيلية أيام بني عباد وأيام الموحدين، ثم سقطت بأيدي الأسبان سنة 1248م. ينسب إليها عدد كبير من العلماء منهم ابن الدباج أبو الحسن علي بن جابر شيخ الأندلس، وابن وثيق أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأشبيلي شيخ القراء، وأبو بكر بن محمد بن العوام، صاحب كتاب (الفلاحة) وابن هانئ الأندلسي أمير شعراء الأندلس وأبو بكر محمد بن عبدالله الشهير بابن العربي المعافري الأشبيلي، وغيرهم.([1])

تُعدُّ مملكة إشبيلية أهمَّ دول الطوائف كلها، وأعظمها شاناً وأقواها عدةً، فمع تفوقها العسكري والسياسي وموقعها الجغرافي، فقد علا فيها شأن العلم والعلماء، والأدب والأدباء؛ وهذا ما جعل ملوكها أشهر الملوك، وشعراءها أفحم الشعراء.

وإذا كنا سنتحدّث عن مملكة إشبيلة فيجدر بنا أن نتحدث عن بني عبّاد الذين صنعوا من إشبيلة مملكة تفوّقت على دول الطوائف الأندلسية، واستطاعت التَّغلُّب على قرطبة، وأسقطوا حكم الحموديين فيها، وعلا شأنهم في بلاد الأندلس حتى خطب ودَّهم أمراؤها وأعيانها.

[1]- الحميري: محمد بن عبد المنعم الحِميري (1980م)، الروض المعطار في خبر الأقطار (ط2) ، بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ص175

ثانيًا- النسب والإنتماء: بنو عبّاد من العرب الداخلين إلى الأندلس، وهم ينتمون إلى لخم، وكان قد دخل رهط من اللخميين بلاد الأندلس، كان منهم عطّاف بن نعيم وهو جدُّ العباديين، ولمّا دخل الأندلس نزل بقرية قرب إشبيلية، وقد تناسل ولده بها مدة من الزمان، ثم انتقلوا إشبيلية. ([1]) وبنو عبّاد قيل: إنهم ينتمون إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء، فهم لخميون أصليون، وكانوا بنسبهم يفتخرون على غيرهم، ويمتدحهم بذلك شعراؤهم، وفي ذلك يقول شاعرهم ابن اللّبانة: ([2])

مِن بني المنذرين وهو اِنتَسابٌ *** زادَ في فخره بنو عبَّادِ

فئةٌ لم تَلِدِ سواها المَعَالي *** والمعالي قليلَةُ الأولادِ

وكانت لأسرة بني عبّاد مكانة وخطوة لدى خلفاء وأمراء بني أمية؛ خاصة الحكم المستنصر، وابنه هشام المؤيد، وحاجبه المنصور محمد بن أبي عامر، فكانت فيهم الإمامة والخطابة والقضاء.([3]) وقد سطع نجم بني عبّاد في إشبيلية منذ سقوط حكم العامريين واعتلال الخلافة الأموية ثم سقوطها، وذلك أوائل القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، ونتج عن ذلك توالي الفتن وكثرة الانقلابات، وقد تألّق نجم بني عبّاد في أعقاب الفتنة، على يد جدهم أبي الوليد إسماعيل بن عبّاد، وقد استطاع بحكمة ودهاء أن يجمع خيوط السياسة في يده، ويجمع حوله أعيان ورؤساء إشبيلية؛ لمكانته في نفوس أهلها، فقد ولي الشرطة لهشام المؤيد، ثم ولي الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم، كما ولّاه المنصور بن أبي عامر قضاء إشبيلية، وظلَّ بها يراقب الأحداث على كثب، ويعمل ليوم ينفرد فيه بالسلطة لنفسه وولده من بعده كما انفرد غيره بممالكهم، ويستأثر بحُكم مدينة من أعظم مدن الأندلس.([4])

بعد أن استتب الأمر في إشبيلية على يد القاضي إسماعيل بن عبّاد فترة من الزمان؛ إلا أنه لمّا مرض ندب الأمر من بعده لابنه أبي القاسم محمد ليشغل القضاء، واختصر هو على تدبير الرأي في إشبيلية، وظلّ كذلك إلى أن أتاه أجله سنة 414هـ.([5])

---

[1] – المصري: محمد عبد الله عنان المصري (1417 هـ /1997م) ، دولة الإسلام في الأندلس(ط4 ، ج2) ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ص32

[2] – ابن دحية: أبو الخطاب عمر المشهور بابن دحية (1374 هـ / 1955م) المطرب من أشعار أهل المغرب (ط1) ، بيروت – لبنان ، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع ، ص14

[3] – المراكشي: ابن عذاري المراكشي (1983م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ط3، ج2)، لبنان، دار الثقافة، ص239

4- المرجع نفسه: (ج2) ، ص194

5- المرجع نفسه: الجزء والصفحة.

ISSN Online:1859-957X

وبهذا قامت دولة بني عبّاد بإشبيلية، ويعدُّ القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد هو المؤسس الحقيقي لها، وكان لها شأن كبير بين ملوك الطوائف في الأندلس، وقد عظم ملْك ابن عبّاد وقويت شوكته إلى أن توفي سنة 433هـ.

عندما توفي القاضي أبو القاسم ولي من بعده ابنه أبو عمرو عبّاد بن محمد، وتلقب أولاً بفخر الدولة، ثم تلقب بالمعتضد بالله، وقد تميز المعتضد هذا بذكائه السياسي وتفوقه العسكري، ولما مَلَك إشبيلية وأعمالها جرى على سنن أبيه في إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل، وظلّ على ذلك مدة يسيرة، ثم بدَا له أن يستبدَّ بالأمور وحده، وكان شخصية قوية، كان صارماً قاسي القلب، ذكيًّا داهية سريع البديهة.([1])

بدأ المعتضد عهده بالقوّة والصرامة، فبطش بوزراء أبيه، ثم انتقل للامتلاك على الإمارات الغربية والجنوبية في الأندلس، واستطاع بقوَّته وتفوُّقه العسكري أن يسيطر عليها ويضمها إلى أملاكه.([2])

توفي المعتضد بن عبّاد بعد أن توسَّعت دولته، وعظم ملكه، وهو يبلغ من العمر 57 سنة، وذلك في جمادى الآخر سنة (461هـ/ 1069م)، وفيه يقول ابن القطَّان المؤرخ: (كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي ببغداد، وكان ذا سياسة ورأي، يدبِّر ملكه من داره، وكان يغلب عليه الجود؛ فلم يُعْلَم في نظرائه أبذل منه للمال).([3])

بعد وفاة المعتضد آل حكم مملكة إشبيلية إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عبّاد، وتلقَّب بالظافر بحول الله والمؤيد بالله والمعتمد على الله، وكان المعتمد يوم أن جلس على كرسي والده فتىً في ريعان شبابه في الثلاثين من عمره، كان مولده سنة 431هـ أو 432هـ.([4])

كان المعتمد فارساً شجاعاً، وشاعراً ماضياً، مشكور السيرة في رعيته، وكان من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل، مخالفاً لأبيه في القهر والسفك والأخذ بالظن، ردَّ جماعة ممَّن نفاهم أبوه، وأحسن السيرة، إلا أنه كان مولعاً بالخمر، منغمساً في اللذات، عاكفاً على البطالة، مخلداً إلى الراحة؛ فكان ذلك سبب هلاك

1- المراكشي: عبد الواحد المراكشي (1426هـ / 2006م) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين ، (ط1) ، بيروت ، صيدا ، ص73

2- المراكشي: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ج1) ، ص129

3- المرجع نفسه: الجزء والصفحة.

4- ابن الأبّار: محمد بن عبد الله بن الأبّار: الحلة السيراء (ج2) ، ص52

ISSN Online:1859-957X

ملكه.([1]) ويُعدُّ عصر المعتمد في الأندلس من أشهر عصور الطوائف على الإطلاق، وكان أول عمل تضلَّع له المعتمد بن عبّاد أن تدخّل وبصورة مباشرة في شؤون قرطبة؛ ليحسم الخلاف ويُحقّق حلم آبائه في تملكها، وهذا ما حدث له بالفعل، واستطاع أن يستولي على معظم أراضي طليطلة الجنوبية الشرقية، كما استولى على مملكة غرناطة وضمّها لنفسه، واستولى على مُرسية وبَلنسية.([2]) وغيرها من دويلات الطوائف الأخرى.

ولقد استطاع المعتمد بن عبّاد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتدُّ في قلب النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية، من غرب ولاية تُدْمِير شرقاً حتى المحيط الأطلنطي، ومن ضفاف وادي يانة جنوباً حتى أراضي الفرنتيرة.([3]) وكانت وفاة المعتمد بأغمات في المغرب إثْر نكبته مع المرابطين؛ جزاء تعاونه مع النصارى ضد يوسف بن تاشفين قائد المرابطين في الأندلس، وذلك في ذي الحجة سنة (488هـ/ 1095م) وقد رثي نفسه بهذه الأبيات، وأمر أن تكتب على قبره:([4])

قَبرَ الغَرِيبِ سَقاكَ الرّائحُ الغَادِي *** حقًّا ظَفِرتَ بِأشلاءِ ابن عَبَّادِ
بِالحِلمِ بِالعِلمِ بالنُّعْمَى إذا اتَّصَلتْ *** بِالخِصبِ إنْ أجْدَبُوا بالرّيِّ للصَّادِي
بالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إذا اقتتلوا *** بِالموت أحْمَرَ بالضِّرغامةِ العَادِي
بِالدَّهرِ في نِقَمٍ بِالبحرِ في نِعَمٍ بِالبدرِ *** في ظُلُمٍ بِالصَّدرِ في النَّادِي
نَعَمْ هُو الحقُّ فَاجَاني على قَدرٍ *** مِنَ السَّماءِ وَوَافَانِي لِميعادِ
وَلَمْ أكُنْ قَبلَ ذَاكَ النَّعْشِ أعْلمُهُ *** أنَّ الجِبالَ تَهادَى فَوْقَ أعوادِ
كفاك فارفُقْ بما استودعت من كرم *** رجاك كل قَطُوب البرق رَعَّادِ
يَبْكِي أخَاهُ الذي غيبت وابلَه *** تَحْتَ الصَّفيح بدمعٍ رائحٍ غَادِي
حَتَّى يَجودك دمع الطَّل منهمرًا *** من أعين الزهر لم تبخل بإسعادِ
ولا تَزَلْ صَلَواتُ الله نازلة *** على دَفِينِكَ لا تُحصى بِتَعْدادِ

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة، رشحه للملك من بعده، وجعله ولي عهده، ولقبه بالمؤيد بنصر الله؛ فعاقته الفتنة عن مراده، وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده؛ فما

[1]- المرجع نفسه: (ج2) ، ص55
[2]- المصري: محمد عبد الله عنان المصري: دولة الإسلام في الأندلس (ج2) ، ص31
[3]- المرجع نفسه: ج2 ، ص71
[4]- المراكشي: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص120

برح بفخر الدولة هذا تغير الأيام بعد الفتنة، إلى أن أسلم نفسه في السوق، وتعلم من الصنائع صنعة الصُّوَّاغ، وهكذا انتهت مملكة إشبيلة إلى الأبد.([1]) وبعد التَّعرف على بني عبّاد ودولتهم؛ نسلط الضوء على عوامل الازدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد بمنطقة إشبيلية في الأندلس.

المحور الثاني: حُبّ أمراء بني عبّاد للأدب وتشجيعهم للشعر والشعراء

المتتبع لسير أمراء بني عبّاد يلمس ولا شك هذا الاهتمام واضحاً، حيث روي أن ظهور بني عبّاد في إشبيلية لم يكن حداً فاصلاً لرواج الأدب وازدهاره. بل على العكس من ذلك تماماً، إذ لاقى الأدباء والشعراء في عهدهم كل رعاية وعطف. ويبدو أن بني عبّاد هم أولى ملوك الطوائف الذين اشتهروا بذلك، حيث كانوا هم أنفسهم شعراء وكان بلاطهم منتدى الأدب في عصرهم.

هكذا كان القاضي ابن عبّاد، محباً للعلم مؤثراً للأدب، مفرطاً في إكرام من ينتسب إليهما. فقد جاء في البيان المغرب على لسان الحميدي، قوله:(كان أبو عمرو صاحب إشبيلية من أهل الأدب البارع والشعر الرائع، وقد رأيت له سفراً صغيراً، في نحو ستين ورقة من شعر نفسه، ومنه قوله:([2])

كأنّما ياسميننا الغضُّ *** كَواكبٌ في السّماء تَبْيَضُّ
والطّرق الحمر في جوانبه *** كخدّ عذراء مَسَّهُ عَضُّ

وهذا المعتضد بن عبّاد يجعل يوماً من أيام الأسبوع- الاثنين- للشعراء يفدون به عليه، فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويجيز السّابق بينهم ويشحذ همهم للظلم.([3])

وممّا يروى عن محبة المعتضد بن عبّاد للشعر والشعراء، قصة رويت حين فشل ابنه المعتمد في احتلال مالقة، مفادها: عندما خاب ظن المعتمد في ضم مالقة لإمارة بني عبّاد، أمر المعتضد باعتقاله في رندة، فأخذ يرسل إليه القصائد يمدح فيها كرهه ويلتمس عفوه ويستميل قلبه ويطلب رضاه، ويهون عليها الخسارة بالإشارة بسابق انتصاراته وباهر فتوحاته. وحاول أن يبرئ نفسه ويلقي عبء اللوم على البربر الخونة. ووصف ما انتابه من الحزن لإخفاق الحملة وما ألم به من الكرب، وأنه قد أصبح زاهداً في كل متاع الدنيا، ولا يرجو شيئاً سوى عفو والده. وقال في أولى هذه القصائد التي استعطف بها أباه:([4])

---

[1]- المرجع نفسه ، ص120

[2]- المراكشي: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص242

[3]-الركابي: جودة الركابي، (د. ت) ، في الأدب الأندلسي، مصر ، دار المعارف ، ص92

[4]- ابن الأبّار: محمد بن عبد الله بن الأبّار: الحلة السيراء (ج2) ص56-58

سكّن فُؤَادك لَا تذْهب بك الفِكر *** مَاذَا يُعِيد عَلَيْك البثّ والحذر
وازجر جفونك لَا ترض البكاء لَهَا واصبر *** فقد كنت عِنْد الخطب تصطبر

إلى أن يقول:

لم يَأْتِ عَبدك ذَنباً يسْتَحق بِهِ *** عتباً وَهَا هُوَ قد ناداك يعْتَذر
مَا الذَّنب إِلَّا على قوم ذَوي دغل *** وَفِي لَهُم عفوك المَعْهُود إِذْ غدروا
رضاك رَاحَة نَفسِي لَا فجعت بِهِ *** فَهُوَ العتاد الَّذِي للدهر يدّخر

وعندما وصلت المعتضد هذه الأبيات، عفا عنه وأطلق سراحه.

وحين ولي المعتمد عرش بني عبّاد بز أباه في مضمار الشعر، حتى أصبح بلاطه مركز الحركة الأدبية في إشبيلية، فتسابق الأدباء إليه وتهافت الشعراء عليه. وفي هذا الصدد كتب صاحب المعجب:(واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه).(1)

وغير عجيب أن يكثر وفود الشعراء على قصر المعتمد فهو: ملك كريم وشاعر مطبوع، جمع صفات العطاء والجود والشّجاعة إلى صفات الأدب والعلم بفنونه. ومن ثم كتب ابن بسّام:(... وكان مع اشتغاله بالحرب وسعة مجاله بين الطعن والضرب ... متمسكاً من الأدب بسبب، وضارباً في العلم بسهم وله شعر، كما انشق الكمام عن الزهر لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذ بضاعة، لكان رائعاً معجباً، ونادراً مستغرباً، فما ظنك برجل لا يجد إلا راثياً ولا يجيد إلا عاتباً. وهو مع ذلك يرمي فيصيب ويهمي فيصوب).([2])

ومما يروى عن المعتمد: أنه أول ما تعرف إلى امرأته- اعتماد- الشهيرة بالرُّمَيْكِيَّة، كان عن طرق الأدب. فقد زعموا أن المعتمد ركب في النهر ومعه الشّاعر ابن عمار وزيره، وقد زردت الريح بالنهر. فقال ابن المعتمد لابن عمار أجز قولي:

صنع الريح من النهر زرد

فأطال ابن عمار الفكرة، فقالت امراة من الغسالات:

أي درع لقتال لو جمد

1 – المراكشي: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين ، ص77
2– ابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج1) 42–41

ISSN Online:1859-957X

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به، مع عجز ابن عمار، ونظر إليها، فإذا هي صورة حسنة، فأعجبته، فسألها: أذات زوج هي؟ فقالت: لا. فتزوجها، وولدت له أولاده الملوك النجباء.([1])

وكان المعتمد مع فرط حبه لاعتماد، ما يزال يخصها بأروع القصائد وأعذب الألحان. وقد أرسل إليها مرة، هذه الأبيات التي يتضمن الحرف الأول في كل بيت منها حرف من حروف اسمها، يقول:([2])

أغائبة الشّخص عن ناظري *** وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك سلام بقدر الشجو *** ن ودمع الشؤون وقد السهاد
تملكت مني صعب المرا *** م وصادفت ودي سهل القياد
مرادي لقياك في كل حين *** فيا ليت أني أعطي مرادي
أقيمي على العهد ما بيننا *** ولا تستحيلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيّه *** وألفت فيه حروف اعتماد

هكذا كان شعر المعتمد صورة صادقة للشاعر الأندلسي، وأن حب هذا الأخير للشعر والأدب، كان حباً خالصاً وذوقاً شعرياً بعيداً عن أي مظهر من مظاهر التباهي والتفاخر. ولهذا لا نعجب أن نرى بلاطه قد أصبح ملتقى الشعراء، ونادياً يتباهى فيه كل شاعر بما جادت به قريحته من قصائد.

يرى الباحث أن العوامل التي سبق ذكرها، خاصةً الفصاحة والبلاغة التي يتمتع بها أمراء بني عبّاد الذين تعاقبوا على رئاسة إشبيلية في عصر الطّوائف، أسهمت بصورة كبيرة في تطوير النهضة الأدبية، إضافةً إلى إنجازاتهم التي حققوها في زمن إمارتهم، فقد كانت ميداناً لأهل الأدب يتبارون فيه. وبجانب هذا كان للمرأة الإشبيلية مساهمة فعّالة في تطوير النّهضة الأدبية في هذا العصر، وذلك من خلال مشاركتها في مختلف ميادين الأنشطة الثقافية والعليمية والأدبية. كل هذا أدى إلى ازدهار الحياة الأدبية في زمن أمراء بني عبّاد بإشبيلية الأندلسية.

المحور الثالث: المجالس الأدبية والمظاهر الحضارية

أولاً- المجالس الأدبية: اتسعت رقعة الإبداع الشعري في دولة بني عبّاد بانتشار المجالس الأدبية، حيث كان لأبي القاسم محمد بن عبّاد- مؤسس دولتهم- باع في العلم والأدب، وذلك

1- السيوطي: جلال الدين السيوطي (د. ت) نزهة الجلساء في أشعار النساء، القاهرة ، مكتبة القرآن ، ص98.
2- ابن عبّاد: أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد (1951م) ديوان المعتمد بن عبّاد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ص55

ISSN Online:1859-957X

من خلال مشاركته في مجالسه للشعراء والبلغاء في صنعة الشّعر وحوك البلاغة، باسطاً لهم، وإقامة لهممهم، ولما كان في طبعه من ذلك أيضاً.([1]) وكان للمعتضد بن عبّاد مجلساً أدبيًّا في يوم الاثنين من كل أسبوع للشعراء، يفدون به عليه، فيطارحهم الشّعر ويستمع إليهم ويجيز السّابق بينهم ويحشد همهم للنّظم.([2])

وللمعتمد بن عبّاد مجلس أسبوعي في فترات تواجده في القصر، يجتمع فيه الشعراء والأدباء أمثال ابن زيدون وابن وهبون وابن حمديس وابن عمّار وغيرهم كثير. وكانت المناظرات تجري بينهم في إطار المنافسة الشّعرية والصراع على اللّقب. وكان المعتمد في بعض الأوقات يتولى بنفسه إجازة ما يسمع من الشعر. فالمعتمد بن عبّاد وحاشيته من الوزراء وكبار رجال الدولة يحتاجون إلى ساعات للترفيه وإمتاع النّفس من خلال المجلس الأدبية. ودليل قولنا هذا، هو ما أوردته بعض كتب التراجم، في مقدمتها: نفح الطيب، والبيان المغرب وغيرهما من أنباء تخص مجالس اللهو التي كانت تعقد في حضرة المعتمد بن عبّاد. ففي إحدى المرات المعتمد في مجلس احتفل في تنضيده وإحضار بعض الطرائف الملوكية فيه. وكان في جملة تلك الطرائف تمثال جمل من البلور، وله عينان ياقوتيتان، وقد حلي بنفائس الدر، وكان حاضر هذا المجلس الشّاعر أبو العرب الصقلي، وأنشد المعتمد قصيدة، فأمر له المعتمد بذهب كثير مما كان بيده من السكة الجديدة، وطمعت عين أبي العربي إلى تمثال الجمل، فقال معرضاً بذلك: ما يحمل هذه الصلة إلا جمل. فقال له المعتمد: خذ هذا الجمل فإنه حمال أثقال. فارتجل أبو العربي شعراً يقول فيه:([3])

أهديتني جملاً جونا شفعت به *** حملاً من الفضة البيضاء لو حملا
نتاج جودك في أعطاف مكرمة *** لا قد تصرف من منع ولا عقلا
فأعجب لشأني فشأني كل عجب *** رفهتني فحملت الحمل والجملا

ومن هذه المجالس، مجالس الرشيد بن المعتمد، التي شارك فيها ابن عمّار بأشعاره، عندما ارتجل هذه الأبيات بعد أن دارت الكؤوس، وتمكن الأنس، يقول ابن عمّار:([4])

ما ضرَّ أنْ قيل إسحقٌ وموصلُهُ *** ها أنْتَ أنْتَ وذي حِمصٌ وإسحقُ

---

[1]- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج3) ص13
[2]- الركابي: جودة الركابي: في الأدب الأندلسي ، ص92
[3]- ابن عبّاد: أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد: ديوان المعتمد ، ص126
4- المصدر نفسه: ص233

ISSN Online:1859-957X

أَنْتَ الرّشيدُ فدع قد سمعتَ بهِ *** وإنْ تشابَهَ أخلاقٌ وأعراقُ
للهِ درُّك دَارِكْهَا مُشعْشَةً *** واحضرُ بِسَاقِيكَ ما قَامتْ بنا ساقُ

فالرّاح والساقي والغلمان في هذه المجالس تكون مدعاة لارتجال الشّعر ونظمه.

وروي أيضاً، أن تلك المجالس لم تكن تخلو من مباحثات أدبية ونقدية، وتناولت تلك الأحداث مرّة قول المتنبي الذي كان يعجب النّقاد القدامى إلى حدّ أن قالوا عنه، إنه أمير شعره، وهو قوله:([1])

أَزورُهُم وَسَوادُ اللَيلِ يَشفَعُ لي *** وَأَنثَني وَبَياضُ الصُبحِ يُغري بي

فقال المعتمد: ما قصر المتنبي في مقابلة كل لفظة بضدها، إلا أن فيه نقداً خفيًّا ففكروا فيه. فأخذ الحاضرون وهم من كبار الشعراء والأدباء يفكرون في البيت ويجيلون فيه بصيرتهم النّاقدة وأطالوا الفكر، ولكنهم لم يفطنوا إلى ما لاحظه المعتمد، فقالوا له مقرّين بعجزهم: ما وقفنا على شيء. فقال المعتمد: الليل لا يطابق إلا بالنّهار، ولا يطابق بالصّبح لأن الليل كلّي والصّبح جزئي. فتعجب الحاضرون وأثنوا على تدقيق انتقاده.([2]) ومجلس آخر يدور فيه النّقد حول شعر ابن عمّار، وهو مجلس المعتمد، حيث قرأ قصيدة ابن عمّار التي استعطفه بها، ومنها قول ابن عمّار:([3])

وبَينَ ضُلوعِي مَنْ هَواهُ تَميمةٌ *** سَتَنْفَعُ لو أنَّ الحِمَامَ يُجلّحُ

فحاول أعداء ابن عمّار أن يعيبوا في هذا البيت، فجعلوا يقولون: أي معنى أراد؟ ما قال شيئاً ولا كاد، فقال لهم المعتمد: مهما سلبه الله المروءة والوفاء، فما سلبه الفطنة والذّكاء، إنما اقتبس بيت الهذلي، فأحسن ما أراد:([4])

وإذا المَنيَّةُ أنْشَبتْ أظْفَارهَا *** ألفَيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنْفَعُ

فسكت القوم.

ثانياً-المظاهر الحضاريّة: برع أمراء بني عبّاد في دولتهم بإشبيلية تشييد القصور الشّاهقة، وتنزيينها بالنقوش، والزخارف والرسوم المختلفة متأثرين في عملهم بفنون المعمار الإسلامي

1 – عباس: إحسان عباس (1983م) تاريخ النقد الأدبي عند العرب (ط4) ، لبنان ، دار الثقافة ، بيروت ، ص524
2 – ابن عبّاد: أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد: ديوان المعتمد ، ص127
3– المصدر نفسه: ص321
4–الهذلي: أبو ذؤيب الهذلي (د. ت) ، ديوان أبو ذؤيب الهذلي ، دمشق ، دار المعرفة للملايين ص134

المشرقي، وأساليب العمارة اليونانية والأسبانية، وجرى التّنافس بينهم في إتقان البناء، وإحكام الصنع والزخرفة، وتعدد النقوش والرسوم التي تزيد غالباً من جمال الأبنية وسحرها في العيون.

ويبدوا أن أغلب الشعراء في عهدهم اهتموا بقصورهم اهتماماً واضحاً في آثارهم الشعرية، فوقفوا عندها منوهين بملامح الحسن والجمال ومواضع الدّقة والبراعة. ومن هنا كتب ابن زيدون للمعتمد ابن عبّاد يذكره بمجالس الشّراب واللهو بقصوره الجميلة. ومنها الثّريا والمبارك. فقال:([1])

فز بالنجاح وأحرز الإقبالا *** وخذ المنى وتنجز الآمالا
وليهنك التأييد والظفر اللذا *** صدقاك في السمة العلية فالا
يا أيها الملك الذي لولاه لم *** تجد العقول الناشدات كمالا
أما الثريا فالثريا نسبة *** وإفادة وإنافة وجمالا
قد شاقها الإغباب حتى إنها *** لو تستطيع سرت إليك خيالا

وفي موضع آخر من هذه القصيدة يصف الشّاعر ابن زيدون قصر المبارك بقوله:

وتأمل القصر المبارك وجنة *** قد وسطت فيها الثريا خالا
وأدر هناك من المدام كؤوسها *** وأتمها وأشفها جريالا
قصر يقر العين منه مصنع *** بهج الجوانب لو مشى لاختالا
لا زلت تفترش السرور حدائقاً *** فيه وتلتحف النعيم ظلالا

وهذه الأبيات اشتملت على إعجاب مفرط بقصر المبارك، وما يحويه من أسباب الرّاحة، والسرور فالحدائق الغنّاء تملأ جنباته، وتظله بمختلف أنوع الشجر والزهر مما يزيد جماله وضوحاً وفتنة.

أما قصر الزاهي الذي شيّده المعتمد بعد توليه الإمارة، فإنه حظي بوصف شاعره عبد الجليل بن وهبون الذي أشاد به في شعره فقال:([2])

وللزاهي الجمال سناً وحسنا *** كما وسع الجلالة والكمالا
يحاط بشكله عرضاً وطولاً *** ولكن لا يحاط به جمالا
وقور مثل ركن الطود ثبت *** ومختال من الأنس اختيالا
فلو أوتوا حرام السحر منه *** لا ضحى يعبد السحر الحالا
فقد كان اللبيب يهال منه *** ويحسب أن بحر الجود سالا

[1]-ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله ، المعروف بابن زيدون (ب ت) ديوان ابن زيدون ، بيروت ، دار صادر ، ص81
[2]- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج1) ص508

ISSN Online:1859-957X

فما أبقى شهاباً لم يصوب *** ولا بدراً ينير ولا هلالا

وبعد وصفه وصفاً ظاهرياً عاماً انتقل إلى الحديث عن محتواه الداخلي، وما يشتمل عليه من ملامح الحسن المفضض والمذهب الذي يحاكي السماء في لونها عند ظهور الشفق فقال:

وللبهو البهي سماء نور *** يمثل خلقها شكلاً وحالا

مزخرفة كأنّ الوشي ألقى *** عليها من طرائفه خيالا

وما خلت الهواء يكون روضاً *** ولا شمساً يكون هناك آلا

وأما تماثيل القصر، وزخارفه ورسومه، فقد نالت نصيبها من شعره فقال:

وكل مصور خلى جمادا *** يبين فيه زهوراً أو دلالا

له عمل وليس له حراك *** وإفهام وما أوفى مقالا

ويقرع فيه مثل النصل بدع *** ومن الأفيال لا يشكو ملالا

أما أبو الحسن البكري فإنه عني بوصف قصر المعتمد بن عبّاد بقصيدة طويلة، وقف عند تماثيله، ورسومه التي تزين مجلس الأمير. يقول في جزء منها:([1])

وفي صحن ساحته مجلس *** شرود اللحاظ به يعقل

كأنّ تماثيل جدرانه *** على من يقابلها تقبل

تبين بفصل الخطاب الفصيح *** لديك وإن أخرس المقول

وبهذه الطريقة تتابع وصف البكري لمعالم القصر الجمالية، فنوّه بسحرها وانفراداها ببراعة النقش، ودقة النّحت والرّسم النّادر المثال.

وبمراعاة ما تقدم يرى الباحث أن المجالس الأدبية بشتى أنواعها المختلفة في بلاط بني عبّاد، وخاصةً مجالس الخمر التي تمثل سمة بارزة من سمات المجتمع الأندلسي، ومجالس الموسيقى والغناء التي يجتمع فيها الناس لسماع الغناء، ورقص الراقصات على دندنات الأعواد والأوتار في كل شكل من أشكال اللهو والمجون، واجتماع الشعراء فيها، كانت محفزاً لقول الشعر وإبداعه لدى شعراء دولة بني عبّاد، بل كانت من العوامل المؤثرة في الازدهار الأدبي بإشبيلية الأندلسية.

أمّا المظاهر الحضاريّة التّي شيّدها آل عبّاد في مدينة إشبيلية التي أقاموا بها وفق الأسلوب المشرقي بشوارع ضيقة ذات محاور متكسرة درءاً للشمس وحماية للسكان، واتخذوا شكلاً مميزاً في

[1]- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج2) ص891

ISSN Online:1859-957X

بناء قصورهم، فقد جعلوا في مسكنها صحناً يتوسطه بركة ماء، وعلى جانبها الأزهار والأشجار، وغيرها من أدوات الزّينة التي زيّن بها آل مدينة إشبيلية. كل هذا شجّع الشّعراء على التأليف في معظم أغراض الشّعر المعروفة وذلك على حسب المناسبة التي يمرّ بها الشاعر. ممّا كان لهذا دورٌ فعّال في الإزدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد.

المحور الرّابع: كثرة الشّعراء في بلاط بني عبّاد

استطاع بنو عبّاد أن يجمعوا في دولتهم بين الزّعامة السّياسية والزعامة الأدبية. ذلك أن إشبيلية أصبحت في عهدهم، قطب الحركة الأدبية ومركز إشعاع شعري، ومستودع تراث الأندلس القومي والسياسي، وملجأ معظم الأسر الأندلسية العريقة، الذين نبغ منهم عدد كبير من الشعراء والأدباء.

ومن هنا اجتمع في بلاط بني عبّاد فحول شعراء الطوائف، وقد اعتنوا بهم وقدّموهم، واتخذوهم ندماء ووزراء، ولعلّ أشهرهم على سبيل المثال لا الحصر:

ابن زيدون: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، ولد بالرّصافة، وسكن إشبيلية وتوفي بها. وكان وزيراً وشاعراً، اشتهر شعره بولادة بنت المستكفي التي كان لها أثر عظيم في فنه وحياته الشعرية. وكان له بين الأمراء منزلة عالية لمواهبه الأدبية ومعرفته بأحوال المسلمين في الأندلس.([1]) **عبد الجليل بن وهبون:** هو أبو محمد الملقب بالدمعة المرسي، وهو من فحول شعراء إشبيلية، الذين وفدوا على المعتمد وغشوا ساحته.([2]) **ابن اللّبانة:** هو أبو بكر الدّاني المعروف بابن اللّبانة. كان المعتمد يميزه بالتقريب ويستحسن شعره. وقد عد من شعراء إشبيلية الكبار.([3]) **ابن حمديس الصقلي:** وهو من الشعراء الذين رحلوا إلى إشبيلية ولزموا ديوان قصر المعتمد.([4]) **ابن مرزقان الإشبيلي:** وهو أحد الشعراء الذين استظلوا برعاية المعتمد، وأثروا مجالسه الأدبية.([5]) **أبو الوليد البطليوسي:** والمشهور بالنحلي، وهو من الشعراء الذين وفدوا على المعتمد، وكان من أبرز شعراء زمانه.([6]) **أبو العرب الصقلي:** وهو من جلساء المعتمد في

1- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج1) ص369

2- ابن عبّاد: أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد ، ديوان المعتمد: ص118

3- المصدرنفسه: ص121

4- المصدر نفسه: ص122-123

5 -التلمساني: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (1997م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (ط5، ج5) ، بيروت، دار صادر ، ص393

6- المرجع نفسه: الجزء ، والصفحة.

بلاطه، ومن الشعراء الذين اشتهروا بإخلاصهم التّام للأسرة العبّاديّة.([1]) **ابن عمّار**: والملقب بشاعر البلاط المتكسب. وقد كان دون شك، أسطع وجوه الأدب الأندلسي وأطولهم باعاً في نظم القريض، وأكثر الشعراء الإشبيليين شهرةً في المشرق والمغرب.([2]) **ابن الأبّار**: وهو من أبرز شعراء الطوائف. وقد ازدهر نشاطه الشعري في عهد المعتضد بن عبّاد.([3]) **ابن عامر الحميري**: وهو من الشعراء الذين نجحوا في تثبيت أقدامهم في بلاط القاضي ابن قاسم بن عبّاد. وتتمثل في قصائده الجدة والحداثة وتظهر فيها بيئة إشبيلية وطبيعتها الخلابة، وتتجلى في أبياتها الصفة الأندلسية.([4]) ومنهم أيضاً، ابن باجة السرقسطي، وابن الصّمد، وابن القصيرة، وعلي بن حصن الإشبيلي، وابن سهل الإشبيلي وغيرهم.

وإلى جانب هؤلاء الشعراء، فقد نبغ في إشبيلية إبان بني عبّاد عدة شاعرات، كان منهن طبقة من المحسنات البارعات، كالعبادية جارية المعتضد، واعتماد زوج المعتمد الشهيرة بالرميكية، وبثينة بنت المعتمد وغيرهن... وكن جميعاً موصوفات بجمال القد وحسن القول.([5])

من جانب آخر، فقد أخذت الحياة الأدبية والثقافية بصفة عامة إبان مملكة بني عبّاد، شكلاً تنظيمياً في جميع المحافظات التّابعة لإمارة إشبيلية، فاعتني بالكتب وبذل فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائن الدولة العبّاديّة. وقد كانت هذه الكتب تحتوي جميع التخصصات في العلوم القديمة والحديثة على السواء، منها كتب الشروح الشعرية. وفي هذا الإطار شجّع بنو عبّاد حركة شرح الأشعار المشرقية، فعكف الأدباء على شرحها وتبسيطها، والتّعليق عليها، لتكون سهلة بين أيدي المتعلمين، وكان النصيب الأكبر من هذه الشروح للشعر القديم.

فعرف عند المعتضد أنه كان من المعجبين به فاستهواه الشعر الجاهلي، ولهذا كلّف الأعلم الشنتمري بجمع وشرح أشعار الستة الجاهليين وشعر الحماسة. في المقابل أعجب المعتمد بشعر أبي تمام وأمر الأعلم أيضاً بشرحه واستنساخه. ومما ساعد على ازدهار حركة التأليف في

---

[1]- التلمساني: نفح الطيب (ج5) ، ص126

[2]- خالص: صلاح خالص: (1965م)، إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دراسة أدبية تاريخية ، لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها (ط1) ، بيروت ، دار الثقافة ، ص153

[3]- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسّام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج2) ص74

4- خالص : صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص164

5- التلمساني: المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (ج5) ص418

ISSN Online:1859-957X

إشبيلية أيضاً، هو استمرار التشجيع على التأليف من العباديين، فاتسعت حركة جمع أشعار الأندلسيين التي بدأت في الفترة السابقة.

هكذا يتّضح لنا من كل ما سبق، أن الإزدهار الأدبي في دولة بني عبّاد بإشبيلية، قد بلغ ذروته، خاصةً أيام المعتمد بن عبّاد.

المحور الخامس: أثر الطَّبيعة السَّاحرة على شعراء دولة بني عبّاد

من المعروف أن بلاد الأندلس تتمتّع بطبيعةٍ ساحرة فاتنة، قد حباها المولى عزَّ وجلّ بها، فأبدعها أيَّمَا إبداع، ولونها بأجمل الألوان، من سهول يانعة، وجبال خُضْر، وجداول مترقرقة، وغابات كثيفة مُخْضَرّة، وبساتين مُثمرة، ومنتزهات وحدائق مزهرة، وأنهار ووديان تجري على أرضها وتحفّ بها. وهي طبيعة ذات منظر جميل، فلا يستطيع من يشاهدها إلّا أن تفتنه ويتغنى بها، فالشعراء تغنوا بها وهاموا حباً، وألهمتهم أشعاراً خالدة. ومن أشهر الأبيات التي قيلت في طبيعة الأندلس؛ أبيات الشّاعر ابن خفاجة الأندلسي التي تقول:([1])

يَا أَهْلَ أَنْدَلُـــسٍ لله دَرّكُـــــمْ *** مَـــــاءٌ وَظِلٌ وأَنْهَارٌ وأَشْجَـــــارُ
مَا جَنّـــةُ الخُلْدِ إلّا فِـــي دِيَارِكُـــمْ *** وَلَـــوْ تَخَيّـــرْتُ هَذا كُنْـــتُ أَخْتَـــارُ
لا تَحْسَبُوا فِي غدٍ([2]) أَنْ تَدْخُلُوا سَقَراً *** فَلَيْـــسَ تُدْخَـــلُ بَـــعْدَ الجَـــنّةِ النَّـــارُ

وإشبيلية جزء من الطبيعة الأندلسية الثّرّة، وشعراؤها نموذج لشعراء الأندلس لذلك شاع وصف الطبيعة في شعرهم، وتسللت معانيه وصوره إلى أغلب الفنون الشّعريّة من مدح وغزل ورثاء وشكوى وغيرها من الفنون. لهذا يمكن للباحث أن يجعلها قسمين قسم أوّل نتحدّث فيه عن طبيعة إشبيلية الصّامتة، وقسم ثانٍ نتحدّث فيه عن طبيعتها المتحرّكة.

أولاً- الطّبيعة الصّامتة: أحاطت بشعراء إشبيلية مظاهر الطبيعة السّاحرة من متنزّهات ورياض، وأشجار، وبساتين ومياه، فأعجب الشعراء بهذه الطّبيعة، وصاغوا عقوداً بديعة في أشعارهم. ومن مظاهر هذه الطّبيعة الصّامتة:

1- وصف الرّياض والمتنزّهات: تفردت بلاد الأندلس بكثرة رياضها ومتنزّهاتها، فلم تك مدينة من مدنها تخلو من روضٍ جميل، أو متنزّه يداوي العليل، وكانت هذه الرّياض حافلة بألوان المتع

1-ابن خفاجة: إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة (د. ت) ، ديوان ابن خفاجة ، بيروت ، دار الجيل ، ص94
2- وفي رواية (لا تخشوا بعد ذا.....)

ISSN Online:1859-957X

والمسرات بما يعقد فيها من مجالس الشعر والأنس والسرور.([1]) وهي مجالس دعت شعراء إشبيلية إلى رسم لوحات كثيرة لتلك الرياض، يقول ابن المليح واصفاً إحدى الرّياض في قصيدة مدح بها المعتمد بن عبّاد:([2])

والرَّوضُ يَبعثُ بالنَّسيمِ كأنَّما *** أهْداهُ يضربُلاصطباحكَ مَوعِدا
سَكرانُ من ماء النَّعيم فَكلَّما *** غنَّاهُ طَائرهُ وأطربَ رَدَّدَا
يأوي إلى زَهرٍ كَأنَّ عُيونَهُ *** رُقَبَاءُ تَقْعدُ للأحِبَّةِ مَرْصَدا
زهرٌ يفوح به اخضرارُ نباته *** كالزُّهْرِ أسْرجهَا الظَّلامُ وَأوْقَدا
ويَبيتُ في فننٍ توهَّمَ ظِلَّهُ *** بالصُّبحِ في عين القرارة مِزْوَدَا
قد خفَّ موقعهُ لديه وربَّما *** سمح النَّسيمُ بعطفهِ فتأوَّدَا

فالروض يبعث بالنسيم كأنه غناء الطير، والزهر له عيون كعيون الرقباء التي تترصد الأحبة، فرائحة الزهر المخضر كأنها الزهر زال ظلامها، فغدت مضيئة متوقدة. وهنا اعتنى الشاعر بالجانب الحسي من الوصف، وعمد إلى التشخيص، وذلك للكشف عن جمال الروض وسحره، فاستخدم اللون والرائحة والصوت والحركة، وهي عناصر تضفي على الصورة جمالاً وحيوية. وتكشف عن الرابطة العميقة المعقدة بين العالم الخارجي وعقل الإنسان التي توحي بأروع شعر يقال في الطبيعة.

أمّا المتنزّهات، فكانت منتدى الشعراء، ومدار أنسهم، يقضون فيها أجمل أوقاتهم يستمتعون بمناظرها الخلّابة، ومن هذه المتنزّهات متنزّه السُّد الذي وصفه ابن عمّار بقوله:([3])

وليلٍ لنا بالسُّدِّ بينَ معاطفٍ *** من النَّهرِتنسابُ انسيابَ الأراقمِ
بحيثُ اتَّخذنا الرَّوضَ جاراً تزورنا *** هداياهُ في أيدي الرّياح النَّواسمِ
تُبلِّغنا أنفاسُهُ فَيزيدُها *** بأعطرِ أنفاسٍ وأذكى مناسمِ
تسيرُ إلينا ثمَّ عنَّا كأنَّها *** حواسدُ تمشي بيننا بالنَّمائمِ

1- ابن سعيد : (1959م) ، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى (ط1) ، القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ص108

2 - ابن محمد: الحسن بن مسعود بن محمد (1401 هـ / 1981م) زهر الأكم في الأمثال والحكم (ط1، ج2) ، المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ص308

3- التلمساني: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، (ج1)، ص19

ISSN Online:1859-957X

وهنا تبدو الصورة مختلفة عند الشاعر، فهي ليست بهيجة، فالنهر حية تسعى، والرياح النواسمحواسد تمشي بالنمائم، فعبّر الشاعر عن الحالة النفسية المتوترة التي كان يعيشها، ورغم هذه التشبيهات التي توحي بالأسى والحزن، إلا أن أبياته كانت تفيض سلاسةً وعذوبة.

2- وصف الأنهار: اقترنت صورة النهر بوجود الروض، فالنهر ينساب بصفائه فيحيل ما حوله إلى بساط أخضر. ومن هنا عدّد الشاعر ابن اللّبانة فضائل المعتمد بن عبّاد عليه ومناقبه، ويصور إحسانه الكبير إليه في معرض قصيدة قالها يندب المعتمد حينما زاره في أغمات، ويذكّره بأيامه التي كانت معه، وبمكانته الكبيرة عنده، وبالعطاء الكبير الذي ناله أيّام ملكه، يقول:([1])

نهرٌ شربتُ بعبريهِ على صور *** كانت لها فيَّ قبل الرَّاح سَوْراتُ
وكنتُ أروقُ في أيكاته ورقاً *** تهوى ولي من رقيق الشّعر أصواتُ
وكم جريتُ بشطّي ضفتيه إلى *** محاسنٍ للهوى فيهنّ وقفاتُ

والأبيات توضّح حواس الشاعر الخاصة التي تتجاوب مع النظر والصوت واللمس والذوق والعطر للأشياء الطبيعية. فالطبيعة لا تتغير؛ ولكن تأملات الشعراء فيها هي التي تتغير تبعاً لإحساسهم ومزاجهم.

3- وصف الثّمار: كثُرت الثّمار في إشبيلية، وتعددة أصنافها وأشكالها، فالتفت الشعراء إليها، وأجادوا وصفها، فرسم ابن عمّار صورة للتّفاح والإجاص، وقد أهداه إلى بعض أصدقائه بقوله: ([2])

خُذها كما سفَرتْ إليك خُدودُ *** أو أوجست في راحتيك نهودُ
دُرَراً من التُّفاح تُنثرُ بيننا *** ولها بأغصانِ الجنان عقودُ
وشفعتُ بالإجاص قصداً إنّه *** شكلُ الجمال وحدُّهُ المحدودُ
عذراً إليك فإنّما هي أوجهٌ *** بيضٌ تقابلها عيونٌ سودُ

فالتفاح خدود في حمرته أو نهود في استدارته، ثم يجعل الشاعر من التّفاح وجوه بيضا، ومن الإجاص عيون سودا، فالشّاعر يلح في تشبيهاته على ملامح المرأة ومفاتنها.

1- ابن اللبانة: أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللّبانة ، (د.ت)، ديوان ابن اللبانة (ط2) ، القاهرة ، دار المعارف ، ص130

2-ابن عمّار: أبو بكر بن عمّار، ديوان ابن عمّار ، ص263

ISSN Online:1859-957X

4- وصف الورود والأزهار: تحدّث شعراء بني عبّاد عن جمال الورود والأزهار التي تسر الناظرين، ومما أكثروا من وصفه أزهار الورد والبهار والآس والسوسن والأُقْحُوَان والبنفسج والنرجس والياسمين وزهر القَرَنْفُل، وغيرها من أنواعها الّتي تتزين بها أرض الأندلس.

أنشد ابن سهل الإشبيلي أبياتاً يَذْكُرُ فيها عدداً من أنواع الورود الّتي تَسُرُّ النّاظرين بألوان أزهارها الزاهية:([1])

من لي بأن يدنو بعيد مزارِهِ *** ظبيٌ طلوع الفجر من أزرارِهِ
كالغصنِ في حركاتِهِ وقَوامِهِ *** والظبيّ في لحظاتِهِ ونفارِهِ
في الرّوض منه محاسنٌ ومشابهٌ *** في آسه وبهارِهِ وعرارِهِ
فعرارهُ من لحظهِ وبهارهُ *** من خدّهِ والآسُ نبتُ عذارِهِ

والأبيات توضّح وصف الشاعر لمحبوبته بأوصاف استعارها من جمال الطبيعة، فهي كالغصن في حركاته وقوامه، وكالظبي في لحظاته ونفاره، وكالروض في محاسنه بآسه وبهاره وعراره.

فطبيعة الأندلس الساكنة ألهمت عدداً من الشعراء في دولة بني عبّاد للتغني بمنظر جمالها الخلّاب، بل كانت في روعتها وحسن جمالها بحراً لمن أراد أن يغترف منه.

ثانياً- الطّبيعة المتحركة: اهتم شعراء دولة بني عبّاد بجوانب الطّبيعة المتحركة إلى جانب عنايتهم بالطبيعة الصّامتة، ويلاحظ في وصف الطّبيعة المتحركة، اقتصار الشعراء على وصف الطيور بأنواعها المختلفة، ووصف الخيل.

1- وصف الطّيور: إن أبرز ما يلاحظ في وصف شعراء دولة بني عبّاد للطّيور؛ هو الحمام. ووصف الحمام يعدُّ عنصراً مثيراً لمشاعر الشوق والحنين للوطن والأهل. ففي قصيدة لابن زيدون يثير غناء الحمام شوقه وحنينه إلى أهله ووطنه، يقول: ([2])

وأرَّق العينَ والظّلماءُ عاكفةٌ *** ورقاءُ قد شفَّها إذ شفَّني حزَنُ
فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتِها *** وباتَ يهفو ارتياحاً بيننا الغُصنُ

هاجت حمامة وَرَقَّا مشاعر الشوق في نفس الشّاعر، فاستبدّ به الحنين، فأخذ يبث الحمامة مشاعره وأحزانه وعواطف الشوق.

[1]- ابن سهل: أبو إسحاق إبراهيم بن سهل (د. ت) ديوان ابن سهل الإشبيلي الإسرائيلي ، بيروت ، دار المطبعة العربية ، 1885م ، ص16

2- ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ديوان ابن زيدون ، ص127

ومن أنواع الطيور التي تَغَنَّى بها شعراءُ دولة بني عبّاد (القَطَا)، ولمّا نُكِبَ المعتمدُ بنُ عبَّادٍ، وسِيقَ مع أبنائه أسرى إلى (أغمات) بالمغرب، لم يجد الملك الأسير غير الشعر يبثه حنينه ويودعه شكواه. وحدث أن عبرت به أسرابُ القطا فتمنى أن لو كان مثلها في الحرية والحركة. يقول في جزء منها:([1])

بَكَيْـتُ إِلَى سِـــرْبِ القَطَا إِذْ مَـرَرَنْ *** بِي سَـوَارِحَ لَا سِجْـنٌ يَعُـوقُ وَلَا كَبْلُ
وَلَـمْ تَـكُ وَاللهِ المُعِيْـــذُ حَسَـــادَةً *** وَلَكِـنْ حَنِيْناً إِنَّ شَكْلِـي لَهَـا شَكْـلُ
فَأَسْـــرَحُ لَا شَمْلِـي صَرِيْعٌ وَلَا الحَشَا *** وَجِيـــعٌ وَلَا عَيْنَـايَ يَبْكِيْهُمَـــا ثَكْـلُ
هَنِيْئاً لَهَـا إِنْ لَـمْ يُفَـــرَّقْ جَمِيعُهَـا *** وَلَا ذَاقَ مِنْهَـا البُعْـدُ عَنْ أَهْلِهَا أَهْلُ

2- وصف الخيول: اهتمَّ شعراء دولة بني عبّاد بوصف الخيل، وأبدعوا لها لوحات دقيقة في شدة سرعتها، وشجاعة فرسانها، وجمال صهيلها وألوانها، يقول ابن المليح:([2])

خَوافقُ قد ريشتْ بأجنحةِ الهدى *** فطارتْ ببحر الرُّوم كُلّ مطارِ
فهنّ بشدّ الجريِ عِقْبانُ شَاهقٍ *** وهنّ بألحانِ الصّهيل قُماري
فمن سابحٍ وردٍ تجلْببَ خلقةً *** بنسجِ دمٍ قبلَ النِّتاج مَمَارِ
وَأبلقَ كالرّيمِ المدمَّى مفضّضٍ *** تخالُ بشقّيهِ مسالَ نضَّارِ

يعمد الشاعر إلى التشبيهات الموحية بالسرعة والجمال، فالخيل خوافق، وعقبان شاهق، صهيلها ألحان القماري، كذلك جمع بين قوة الخيل وجمالها، وكان لكل لون مزية يختص بها، فالحصان الورد أخذ لونه من لون دمه الأحمر المتدفق دلالة على القوة، والأبلق يشبه الغزال لا تظهر عليه علمات التعب.

ويرى الباحث أن طبيعة منطقة إشبيلية المتحركة هي أقلّ شأناً من الطبيعة الساكنة في تناول الشعراء لها، لأن طبيعة هذه البلاد – الأندلس- عموماً لا يتكيف جوها مع كل الحيوانات، ولكن أغلب أنواع الطبيعة المتحركة وروداً في إشبيلية الأندلسية هي الطّيور بكل أشكالها وألوانها، حيث الحدائق والبساتين تكتظّ بها.

أمّا الطّبيعة السّاكنة فكانت أوفر حظّاً من المتحركة لذكرها في الشّعر الأندلسيّ عموماً، وخصوصاً في منطة إشبيلية؛ لأنّ بلاد الأندلس – وعلى حسب – موقعها الجغرافيّ في أجمل

1التلمساني: المقري التلمساني ، نفح الطيب (ج4) ، ص221-222
2- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج3) ، ص463.

ISSN Online:1859-957X

مناطق القارة الأوربيّة، وهو الجزء الجنوب الغربي منها، يوجد فيها عدد من أشكال وألوان الطّبيعة السّاكنة الّتي تسرّ النّاظرين، من جبال خُضْر، وجداول مترقرقة، وغابات كثيفة مخضرة، وبساتين مثمرة، ومنتزهات وحدائق مزهرة، وأنهار ووديان تجري على أرضها.

وفي نهاية الأمر يرى الباحث أنّ طبيعة إشبيلية الأندلسية بنوعيها الساكنة والمتحركة كان لها فضلٌ عظيم على إلهام الشعراء للتّغنّي بجمالها ومنظرها الخلّاب، ممّا كان له أثرٌ على الإزدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد.

خاتمة: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصّالحات، وأصلّي وأسلّم على النّبيّ المصطفى وعلى آله وأصحابه المستكملين الشُّرفا، وبعد:

جاءت هذه الدّراسة تحت عنوان: **(عوامل الازدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد بإشبيلة الأندلسيّة)**. ومن هنا توصّل الباحث إلى عددٍ من النتائج منها:

1- تُعدُّ مملكة إشبيلية أهمَّ دول الطوائف كلها، وأعظمها شاناً وأقواها عدة، فقد علا فيها شأن العلم والعلماء، والأدب والأدباء؛ وهذا ما جعل ملوكها أشهر الملوك، وشعراءها أفحم الشعراء.

2- جاء معظم وصف الشّعراء للطّبيعة في إشبيلية؛ للرّياض والمتنزّهات، والأنهار، والثّمار، والزّهور والورود، والحمام، والخيول. مما انعكس ذلك إلى الازدهار الأدبي في بلاط بني عبّاد.

3- وجد الأدباء والشعراء رعاية عظيمة من قبل حكّام بني عبّاد طيلة فترة مملكتهم، حيث كان القاضي ابن عبّاد مؤسس دولتهم، محباً للعلم مؤثراً للأدب، مفرطاً في إكرام من ينتسب إليهما. أمّا المعتضد بن عبّاد: كان لأهل الأدب عنده سوق نافعة وله في ذلك همة عالية. أمّا المعتمد بن عبّاد: اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه. إضافةً إلى ذلك كان معظم آل عبّاد يقولون الشعر، ويحسنون نظمه.

4- انتشرت المجالس الأدبية في عهد بني عبّاد بإشبيلية، حيث كان لكل حاكم مجالس خاص يجتمع فيه الأدباء والشعراء للتّرفيه وامتاع النّفس، وذلك من خلال المباحثات الأدبية والنّقدية، والمناظرات التي تجري بينهم في إطار المنافسة الشّعرية والصّراع على اللّقب.

5- جرى التّنافس بين أمراء بني عبّاد في دولتهم بإشبيلية حول المظاهر الحضارية، فشيّدو القصور الشّاهقة، وزيّنوها بالنقوش، والزخارف والرسوم المختلفة. ممّا أدى ذلك إعجاب الشعراء بها، ومن ثم وصفوها وصفاً مفرطاً كان له أثرٌ على الإزدهار الأدبي.

ISSN Online:1859-957X

6- اجتمع في بلاط بني عبّاد فحول شعراء الطوائف، وقد اعتنوا بهم وقدّموهم، واتخذوهم ندماء ووزراء، منهم: ابن زيدون، وابن عمّار، وابن وهوبون، وابن اللّبانة، وابن حمديس الصّقلي، وغيرهم.

7- اعتنى بنو عبّاد بالكتب وبذلوا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائن الدولة العبّاديّة. وقد كانت هذه الكتب تحتوي جميع التخصصات في العلوم القديمة والحديثة على السواء، منها كتب الشروح الشعرية.

8- ومما ساعد على ازدهار حركة التأليف في إشبيلية أيضاً، هو استمرار التشجيع على التأليف من العباديين، فاتسعت حركة جمع أشعار الأندلسيين التي بدأت في الفترة السابقة.

التوصيات:

توصي الدّارسة بمزيدٍ من الدّراسات حول عوامل الإزدهار الأدبي في دويلات الطّوائف الأندلسية الأخرى.

المصادر والمراجع:

1- ابن الأبّار: محمد بن عبد الله بن الأبّار(1985م)، الحلة السيراء (ط2، ج2)، القاهرة، دار المعارف.

2- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسام: (1981م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ط1، ج2)، تونس، الدار العربية للكتاب، ليبيا.

3- ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن خاقان:(1983م)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس (ط1)، بيروت، مؤسسة الرسالة.

4- ابن خفاجة: إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة:(د. ت)، ديوان ابن خفاجة: بيروت، دار الجيل.

5- ابن دحية: أبو الخطاب عمر المشهور بابن دحية: (1374 هـ / 1955م) المطرب من أشعار أهل المغرب (ط1)، بيروت – لبنان، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع.

6- ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون: (د. ت) ديوان ابن زيدون، بيروت- لبنان، دار صادر.

7- ابن سعيد : (1959م)، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى (ط1)، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

8- ابن سهل: أبو إسحاق إبراهيم بن سهل: (1885م) ديوان ابن سهل الإشبيلي الإسرائيلي، بيروت، دار المطبعة العربية.

9- ابن عبّاد: أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد: (1951م) ديوان المعتمد بن عبّاد، القاهرة،المطبعة الأميرية.

10- ابن عمّار: أبو بكر بن عمّار: (د. ت)، ديوان ابن عمّار، بيروت، دار صادر.

11- ابن اللبانة: أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللّبانة، (د.ت)، ديوان ابن اللبانة (ط2)، القاهرة، دار المعارف.

12- ابن محمد: الحسن بن مسعود بن محمد (1401 هـ / 1981م) زهر الأكم في الأمثال والحكم (ط1، ج2)، المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء.

13- التلمساني: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (1997م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (ط5، ج1)،بيروت، دار صادر.

14- الحميري: محمد بن عبد المنعم الحِميري: (1980م)، الروض المعطار في خبر الأقطار (ط2)، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة.

15- خالص: صلاح خالص: (1965م)، إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية، لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها (ط1)، بيروت، دار الثقافة.

16- الركابي: جودة الركابي، (د. ت) ، في الأدب الأندلسي، مصر، دار المعارف.

17- السيوطي: جلال الدين السيوطي: (د. ت) نزهة الجلساء في أشعار النساء، القاهرة، مكتبة القرآن، ص98.

18-عباس: إحسان عباس(1983م)تاريخ النقد الأدبي عند العرب(ط4)،دار الثقافة، بيروت.

19- المراكشي: ابن عذاري المراكشي (1983م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ط3، ج2)، لبنان، دار الثقافة.

20- المراكشي: عبد الواحد المراكشي : (1426هـ / 2006م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين(ط1)، بيروت ، صيدا.

21- المصري: محمد عبد الله عنان المصري: (1417 هـ /1997م)، دولة الإسلام في الأندلس(ط4، ج2)، القاهرة، مكتبة الخانجي.

22- الهذلي: أبو ذؤيب الهذلي: (د. ت)، ديوان أبو ذؤيب الهذلي، دمشق، دار المعرفة للملايين.